تفاعل الفن الإسلامي مع الفنون غير الإسلامية بين الفكر والتطبيق

أحمد محمود أمين*

ملخص

يتناول البحث موضوع "تفاعل الفن الإسلامي مع الفنون المعاصرة بين الفكر والتطبيق"، وذلك بدراسة نشأة الفن الإسلامي وإطاره الفكري العقائدي وتحليلهما، وكيفية تفاعله وتأثيره في الفنون غير الإسلامية، وما أفضى إليه هذا التفاعل من إظهار وتكوين لشخصية الفن الإسلامي.

تناقش هذه الورقة علاقة الفن الإسلامي بالفنون المعاصرة وتفاعلهما في ضوء أعمال الفن الإسلامي عامة ونظائرها البيزنطية والمسيحية المعاصرة، مع شرح النماذج الأثرية والحضارية التي تظهر طبيعة هذا التفاعل الديناميكي المبني على إطار فكري عقائدي يستوعب كلّ الإيجابيات، والنظم، والتقنيات، والمظاهر العمرانية والحياتية النافعة، ومعالجة بعض هذه الأعمال وتقويمها لتتناغم مع الإطار الإسلامي الجديد.

1- الفن الإسلامي

الفن –في عمومه– هو قلب الحضارة النابض الذي يحكي قصتها وتاريخها، ويعكس صورتها وتفاصيلها من دون زيف أو تجميل. أمّا الفن الإسلامي فهو الفن الذي ازدهر في بلاد الإسلام (دار الإسلام)، وارتبط –بصورة أو أخرى– بدائرة الإسلام (غرض وظيفي، أو مُنشئ، أو مالك، أو حاكم، أو حكومة)؛ مِن: إنشاء مدن وعمائر (دفاعية، ودينية، ومدنية، وخدمية)، وصناعات مختلفة ومتنوّعة، وذلك في إطار من الالتزام بالقواعد الشرعية غالباً، باستثناء بعض الحقب المتأخرة التي شهدت إنتاجاً فنيّاً خارج إطار المألوف أو المتفق عليه؛ ما يتطلّب دراسة مستقلة للوقوف على أسبابه ودوافعه.

* دكتوراه فى الآثار الإسلامية والبيزنطية، جامعة أثينا باليونان، 2010م، مدرس بقسم الآثار الإسلامية، كلية الآثار، جامعة الفيوم، مصر، amm00@fayoum.edu.eg

وقد أطلق بعض الدارسين على الفن الإسلامي مسميات أخرى، هي: الفن الشرقي، والفن المحمدي، والفن العربي، إلّا أنّ هذه الأسماء لم يُكتب لها الانتشار باستثناء الأخير.

والفن الإسلامي فن نفعي[1] في المقام الأول –وليس فناً دعوياً كما في المسيحية على سبيل المثال–؛ فهو لم يهتم بإنتاج قطع فنية لذاتها بغرض العرض والتزيين، بل كان ذلك جزءاً من عمل اقتضته طبيعة السوق ومتطلّباتها، أو نوعاً من التسويق لإنتاجه، أو تلبيةً لطلبات المستفيدين (زبائن، أو أرباب عمل). وتأسيساً على ذلك، فقد زُيّن الفخّار، وكُتب على السيوف، وزُخرفت الدروع، وزُوّقت العمائر (أرضيات، جدران، أسقف...).

2- المنهج الإسلامي وتأثيره في صياغة الإنتاج الفني

يُمثِّل الإطار الشرعي للدين الإسلامي أحد أربعة محدّدات لسمات الفن الموسوم بالإسلامي وطبيعته؛ حتى إنّه يُمثِّل الإطار الفكري للعوامل الثلاثة الأخرى، وهي: الموروث المحلي، والموروث الحضاري للبلاد المفتوحة، وإبداع الإنسان تبعاً لحاجاته ومستجدات الزمان والمكان.

فقد جاء الإسلام –بوصفه ديناً خاتماً– بفكر جديد تجاوز حدود الزمان والمكان، واستحق به صفة الشمولية بعدما تناول مظاهر الحياة جميعاً، وترك تفاصيل أمورها كلّها –بدءاً بنظم الحكم والإدارة، وانتهاءً بشؤون التجارة والزراعة والعلوم والفنون– للمسلمين يديرونها وفق خبراتهم وعاداتهم وما يناسبهم.

[1] يذهب بعضهم إلى أنّ الفنان المسلم عمل أيضاً بنظرية الفن للفن، مستدلين على ذلك بزخارف شبابيك القلل، وهي من السلع الرخيصة، بل وغير الظاهرة للعيان؛ ما يعني أنّ زخرفتها لم تتبوّأ مكانةً متميّزةً بين مثيلاتها من الزخارف. ومع ذلك، فإنّنا نجد ثروةً جميلةً من شبابيك القلل غنية بالزخارف في أشكال حيوانية ونباتية متعدّدة. ونعتقد أنّ ذلك مردّه حاجة الأسواق، أو حبّ التجويد وإحسان الصنعة كما سيأتي لاحقاً. انظر:
– مرزوق، محمد عبد العزيز. "الإسلام والفن"، **المجلة**، عدد46، أكتوبر 1960م، ص20-25.
– الحداد، محمد حمزة إسماعيل. **المجمل في الآثار والحضارة الإسلامية**، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، 2006م، ص605.

وعلى كلّ حال، فإنّ الإسلام لم يفرض شكلاً محدّداً للفن أو العمارة، بل أطلق العنان للعقل البشري لكي يُبدع ويتفنّن بما يخدم مصالح الناس.

3- تفاعل الفن الإسلامي مع الفنون الأخرى بين الفكر والتطبيق

تُعَدّ الاستفادة من الموروث الحضاري للأمم السابقة والمعاصرة – على الرغم من اختلاف الدين والجنس واللغة كما ذُكر آنفاً– إحدى مزايا الفن الإسلامي الرئيسة. وتُمثِّل قضية أصول الفن الإسلامي إشكالية بين الدارسين والمتخصّصين؛ فبينما ذهب فريق من الباحثين، خاصّةً المستشرقين، إلى القول –بصورة مباشرة، أو غير مباشرة– بأنّ الفن الإسلامي قام على نسخ[2] فنون حضارات المدن التي فتحها المسلمون، وعلى رأسها تلك التي كانت خاضعة للدولتين: البيزنطية، والساسانية في بلاد الشام، ومصر، والعراق، وإيران. ذهب فريق آخر إلى أبعد من ذلك بإنكار صلة الفن الإسلامي بتلك الفنون. وبين هذا وذاك أجمع الباحثون المنصفون على حقيقة التأثر المبكّر للفن الإسلامي بالفنون القديمة المعاصرة، خاصّةً البيزنطي والساساني منها. وفي واقع الأمر، فإنّ هذا التأثّر هو ظاهرة حضارية بدهية لأيّة حضارة بنّاءة، ويُعَدّ ميزةً لافتةً للحضارة الإسلامية، لا نقيصةً كما يعتقد بعضهم؛ فليس هناك فن –أو حضارة بصفة عامة– نشأ من العدم أو الفراغ، ولعلّ سلسلة تطوّر تاريخ الفنون هي أكبر دليل على ذلك. فقد قام الفن البيزنطي –مثلاً– على معالم الفن الروماني الذي ارتكز على أكتاف الفن الإغريقي، واستند الأخير في خصائصه وأساليبه على الفن المصري القديم.

ولكنّ محور قضيتنا الرئيس ينصبّ على كيفية تفاعل الفن الإسلامي الوليد مع فنون الحضارات الكبرى، وهذا التفاعل –في الحقيقة– يُمثِّل حاجات المجتمع الإسلامي الوليد بحسب أربعة محدّدات –

---

[2] بريجز، مارتن. **فن العمارة**، ضمن: بريجز، كريستيا أرنولد. **تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة**، ترجمة: زكي محمد حسن، سوريا: دار الكتاب العربي، ط1، 1984م، ص112.

كما سبق القول–، هي: الإطار الشرعي للدين الإسلامي، والموروث المحلي من أطر فكرية وخبرات حياتية ومجتمعية وعادات وتقاليد، والإرث الحضاري للبلاد المفتوحة –خاصّةً تلك التي كانت خاضعة للدولتين: البيزنطية، والساسانية– من نظم إدارية، وخبرات معمارية وفنية وصناعية، وأيدٍ عاملة خبيرة ماهرة، وكذا إبداع الإنسان المسلم الذي يُطوِّع فنَّه ليتناغم مع حاجاته، ومستجدات الزمان والمكان.

وسنعرض فيما يأتي مقارنة بين أعمال الفن الإسلامي عامّةً ونظائرها البيزنطية والمسيحية المعاصرة؛ سواء كان ذلك في مجال العمارة، أو سكّ النقود، أو التصوير... تُوضّح هذا التفاعل، وتُظهر كيف أَعْمَلَ الفنان (والمعماري) المسلم الفكر في صياغته؛ باستيعاب كلّ الإيجابيات، والنظم، والتقنيات، والمظاهر العمرانية والحياتية النافعة، ومعالجة بعض الأعمال وتقويمها لتتناغم مع الإطار الإسلامي الجديد.